الفصل الثالث

ركض محمد الكبير عبر بهو الشيراتون وحذاءاه الجلديان يصفعان السجادة الرطبة، الغضة صفعات مدوية. "تعالي، جاكي، تعالي. اركضي!" للتو كنت قد غفوت على أرض غرفتي حين اهتز المبنى جراء تفجير أشبه بالرعد. انتفضت جالسة، وأنا ما أزال في ملابسي - التي بقيت فيها لهذا السبب بالذات، نداء الإيقاظ الليلي غير المتوقع: **بوم! بوم!** هرعت إلى الباب وعاينت الممر المظلم. راح محمد الكبير يفسر لدى وصوله إلى بابي: "قذائف مورتار." اقتادني إلى الدرج الأقرب إلى غرفتي، حيث وفرت الأرضية الإسمنتية الرطبة إنعاشاً محبباً في الجو الصيفي الحار. بقي محمد الكبير، وهو العريض مثل لوح، واقفاً يراقب إتقان عملية إلصاق جسدي المسطح بالجدار انتظاراً لتوقف الهجوم. حارس آخر جاء بعلبة سَفن آب. أغمضت عيني وتساءلت عما إذا كنت قادرة على النوم وأنا أحصي نبضات قلبي.

عندي أخ واحد في الولايات المتحدة؛ أما في العراق فعندي سبعة وثلاثون أخاً. درج الرجال العراقيون في فريق العاملين معنا على إيلاء زميلاتهم النساء رعاية استثنائية لأنهن بنظرهم الأكثر هشاشة بين المراسلين الذين تعاقبوا على المكتب. حين وصلت إلى العراق في الثاني من أيار/مايو، قَدَّرَ السائق الذي أقلني

من المطار أنني لن أستمر أكثر من شهر. كان من الصعب على العاملين أن يوفقوا بين تصوراتهم التقليدية عن النساء وما كانوا يرونه أمامهم. غمرهم الفرح عندما خبزت لهم بعض الخبز المحلّى والمعجنات. كانوا يراقبونني وأنا أدلل زملائي، مُعدة لهم الوجبات أيام غياب الطباخة وحاملة إليهم أطباق الطعام إذا ما تأخروا عن موعد العشاء. غير أنني كنت متفوقة عليهم جميعاً في لعبة البيزبول والرمي. كنت أستطيع إثبات وجودي في مباريات كرة القدم الطائرة، كما أستطيع بكل تأكيد أن أسبقهم جميعاً في الجري. مرة خلال إحدى تجارب التدريب على الجلاء عاتبت الحارس الشخصي الأصلع الذي تسلق السلم لـ "اقتيادي" إلى مكان آمن. سبقته بما لا يقل عن خمس دقائق. سألته منادية إياه بلقبه الشائع: "كيف ستنقذني يا أصلع إذا كان نَفَسُك ينقطع حتى من تسلق هذه الدرجات؟" في اليوم التالي، نظرت من النافذة لأرى الأصلع يهرول ببطء في الحديقة في ملابسه العادية، ومسدسه مازال حيث هو في وسطه.

كان مكتب بغداد حصناً كبيراً مختلطاً بسائر أمزجة وشخصيات أكثر من عشرين من العراقيين مع نوبة متبدلة من المراسلين الأمريكيين المحشوين معاً رغم أنوفهم بفعل تزاوج الأحداث. ذات عصر عدت من مؤتمر صحفي في إحدى القواعد العسكرية مع مهند وفلاح، مقدم سابق في سلاح الجو العراقي يعمل الآن سائقاً لدى **البوست**. كان فلاح، وهو في الأربعين ونيف من العمر، يعشق الروك والموسيقا الشعبية الأمريكية كنت قد أعطيته شريط تسجيل سبق لي أن أعددته في الكلية، وفي كل مرة رافقني فيها دس الشريط في المسجلة وجعل مكبرات الصوت تصدح. تبقى الموسيقا سلاحاً عظيماً ضد الخوف - إنها تمكنك من الاختفاء من دنيا الواقع - فكنت شاكرة لقدرتي على التدحرج في شوارع بغداد على أنغام بيتر بول وماري. خلال هذه الرحلة بالذات، ظلت ساعة فلاح الرياضية تزمر، دافعة مهند إلى كيل الشتائم لدى سماع صوت شديد الشبه بصفير أي قنبلة موقوتة. توقفنا لحظة في طريق العودة إلى المكتب لتمكين فلاح

من اقتحام محل الفلافل المفضل لدي في حي الكرادة. إن الرائحة اللاذعة للحمص المقلي انبثقت من الكيس الموضوع عند قدمي ونحن نمر بعربات الحمير الملأى بالخضار والمتوجهة إلى السوق، بنساء ملفوفات بالعباءات يحملن أكياس الأرز على رؤوسهن، وبأطفال حفاة يلعبون كرة القدم بين المجاري في الشوارع. خارج السيارة كان الزمن 2004 . داخلها، كان 1972، وكنا فوق مرج سندسي بإحدى ضواحي نيويورك نغني: "لو كانت عندي مطرقة، لطرقت في الصباح، لطرقت في المساء، فوق هذه الأرض." وفي صخب أصواتنا المرتفعة المواكبة للموسيقا نسينا كلياً ساعة فلاح الصافر مثل قنبلة موقوتة، قنابل المورتار، المختطفين، والانتحاريين المفخخين المترصدين خارج السيارة.

إن مكتب العراق هو العملية الخارجية الأكبر في **الواشنطن بوست** التي تدير أربعة وعشرين مكتباً في أرجاء العالم. يتألف جهاز العاملين من أكثر من أربعين شخصاً، بمن فيهم الحراس الشخصيون، الخدم، عمال المطبخ، السائقون، المترجمون والموثوقون الذين يجلبون لنا الأخبار من جميع أطراف العراق. ما من جزء آخر في العالم تبادر فيه أي منظمة إخبارية إلى تشغيل مكاتب بهذه الضخامة لتغطية بلد واحد. إن مراسلاً، مع جهاز محلي مؤلف من شخصين أو ثلاثة، قادر نموذجياً على تحمل مسؤولية قارة كاملة. إن حجم مكتب بغداد يشي بمدى أهمية العراق كما بمدى ضخامة القصة العراقية في نظر الواشنطن بوست.

لأن علينا أن نثق بأن الناس الذين نستخدمهم لن يغدروا بنا ولن يبيعوا أسرارنا إلى المتمردين، فإن جميع العاملين مترابطون بطريقة ما ـ أقارب، جيران، أو زملاء سابقون. جلهم متميزو التأهيل على نحوٍ لافت لوظائفهم الجديدة في العراق الجديد. قبل الحرب، كان أبو سيف، وهو مترجم الآن، مهندساً سابقاً وطياراً في الخطوط الجوية العراقية يدير مكتباً للسياحة والسفر خارج الدوام. أما غزوان، وهو أحد سائقينا، فقد كان في حياته السابقة يوصل طلاباً جامعيين

وثانويين بسيارته التاكسي. وغسالتنا أم حسين كانت طباخة في أحد قصور صدام. أما وجدان، إحدى طباختي الغداء، فكانت معلمة حديقة أطفال. أكثر العاملين عندنا إما فقدوا وظائفهم بسبب الحرب أو رفضوا العودة إلى أعمال أجورها أقل بكثير من أجور **البوست**.

أوجد راجيف المكتب من لا شيء حين وصل في نيسان/أبريل 2003، وجعله كياناً إمبراطورياً مصغراً. حين وصلت أنا كان كل شيء قد أصبح على ما يرام؟. لم يكن مطلوباً مني إلا أن أستأجر غرفة في مقر راجيف، كما كان توم ريكس يسمي المكتب، مملكة برئاسة رجل اعتاد العاملون على إعطائه لقب "صدام الصغير". كان راجيف يديرٌ بأسلوب دكتاتوري، وحين كان يوجه الأوامر بصوت مرتفع أو يعلن استياءه صارخاً، كثيراً ما كان العاملون يغمغمون ويتذمرون في غيابه. إلا أنهم كانوا يحبونه ويوفرون الحماية له، وقد كان ذلك، آخر المطاف، هو المهم وما كان يمكن المكتب من متابعة العمل في النهاية. كنا نطلب من مستخدمينا العراقيين أن يخاطروا بحيواتهم وحيوات أفراد أسرهم ثمناً للعمل من أجلنا. وكانوا بالمقابل يحصلون على وظائف، على رواتب محترمة، وعلى مهارات قابلة للتسويق. لم نكن نطلب منهم الالتزام بالولاء لأي من دولتينا، دولتهم هم أو دولتنا نحن. كنا فقط نأمل أن يكون حب العاملين لنا كافياً لكي لا يفتحوا الباب إذا ما جاء المتمردون باحثين عنا. في مثل هذا الإطار العام من السلطة تعين على راجيف أن يدير مكتباً. وتعين على خلفه، كارل فيك، هو الآخر أن يبحر بمركب المكتب في المياه ذاتها. وذلك بالتحديد ما كنت، آخر المطاف، سأفعله أنا أيضاً.

كنت بحاجة إلى أسابيع كي أكوِّن صورة واضحة عن عائلتي الموسعة، كي أحفظ أسماء بدت متعذرة النطق على لساني الناطق بالإنجليزية، كي أستوعب السياسة الاجتماعية لجهاز العاملين العراقيين. في ذلك التراتب الهرمي الاجتماعي المعقد كانت السن ذات شأن؛ أما الدين فلم يكن ذا أهمية. كان

المستوى التعليمي ذا شأن؛ أما عواطف المرء تجاه صدام فلم تكن ذات أهمية. المترجمون كانوا أعلى بدرجة واحدة من السائقين الذين كانوا، بدورهم، أعلى بدرجة واحدة من الحراس الذين كانوا، أخيراً، أعلى من عاملي وعاملات الخدمات المنزلية بدرجة واحدة. في الأيام الأولى بعد وصولي حذرني راجيف من تعقيدات النظام الطبقي الاجتماعي العراقي الجامد عبر قصة زميل شاب في **البوست** كان قد طلب من أحد السائقين إصلاح حمامه، مقترفاً خطأ بدا مؤهلاً لوضع حد لحياته. كان بوسعه أن يطلب ذلك من أحد العاملين في الخدمة المنزلية، ولكن لا من أي سائق بالمطلق. بدا جهاز العاملين عندنا بحاجة إلى هذا النظام للتفاهم مع عراق ما بعد الحرب لدى انتقال السلطة بهذه الصورة الكاملة. قبل يوم كنتَ **الرجل الرجل** في حيك لأنك ضابط في الحرس الجمهوري، شخص مرهوب الجانب. وبعد يوم أصبحت، مثل غيرك من أبناء حيك الآخرين، بلا عمل. كانت البطالة أداة فاعلة لتحقيق المساواة. بعد الغزو الأمريكي بات الزي المدرسي الموحد في البلاد، الزي الموحد الذي يخفي الألقاب السابقة، المناصب القديمة، مستويات الدخل، الانتماءات القبلية، والدين. أي مسلم شيعي فقير مقيم في كوخ بائس صار أغنى من جندي مسلم سني لا يتوفر على ما يمكنه من شراء ما يطعم به أطفاله. ومن المنطلق نفسه لم يكن دين الشيعي الفقير ذا تأثير بالنسبة إلى الشركات الأجنبية ذوات الرواتب السخية التي تدفقت بغزارة بعد الحرب. كان ذلك مهماً في ظل صدام، ذلك السني الذي دأب على اضطهاد أكثرية البلاد الشيعية. بصرف النظر عن ولاءاتهم فيما قبل الحرب، كان جهاز العاملين عندنا عاكساً لصورة شبه متفائلة للاحتلال الأمريكي وللعراق دون صدام.

نصير الصغير، رجل ضئيل لا يزيد طوله على خمسة أقدام، كان السمكة الصغرى في الحوض الاجتماعي، على جميع أصعدة الحجم، السن، والمكانة. ظل نصير الصغير البالغ الرابعة والعشرين من العمر صبي المراسلات، صبي

الخدمة، المساعد في العمل المطبخي الذي درج على الوصول كل ليلة إلى باب كل مراسل ومراسلة ليتمتم بخجل بعد نقرة سريعة: "عشاء جاهز." بعد إقرارنا بتسلم الرسالة كان يطلق كلمتي "مرحبا، شكراً" سريعتين قبل الابتعاد محرجاً. يا له من طقس ودي محبب! بعد بضعة أشهر من التحاقه بالمكتب، علَّمْتُ نصيراً كيف يبلغنا بلغة إنجليزية صحيحة بأن العشاء جاهز. دربته وشحنته جرأة أسبوعاً كاملاً قبل إرساله إلى غرفة راجيف. على مسافة غير بعيدة في الممر راقبته وهو يقرع باب راجيف ثم يقول: "إن العشاء جاهز: بعناية ويتبعها بعبارة "أهلاً وسهلاً!" ثمة كانت لحظة صمت، أعقبتها صرخة أطلقها راجيف "سِّبِنْ!" - وهو لقبي أنا. كنت قد أفسدت الطقس. تلاشينا، نصير الصغير وأنا، من المكان بسرعة وفي وقت واحد وقد ارتسمت ابتسامة عريضة أشبه بالتكشيرة على وجه نصير.

تسرب نصير الصغير من المدرسة وهو في الصف السادس لأنه لم يعد يطيق الرشى التي كان المعلمون يفرضونها، وهي ممارسة مازالت واسعة الانتشار في المدارس العراقية بل وتصل إلى المستويات الجامعية، حيث يستطيع الطلاب ابتياع درجات أفضل وعلامات أعلى وفرصاً إضافية لاجتياز الامتحانات. كان المعلمون يستجدون الرشى لدعم رواتبهم الضئيلة. وعلى الرغم من أن رواتب الحكومة العراقية الجديدة أفضل، فإن المعلمين مازالوا يقبلون الرُشى. الشيء نفسه يفعله جامع القمامة. فأولئك الذي لا يدفعون تبقى أكوام قمامتهم حيث هي، بل وقد يحصل ما هو أسوأ من ذلك إذ تجري مراكمة القمامة المجموعة في أمكنة أخرى أمام بيوتهم بعيداً عن بيوت الذين يدفعون. ما من مسألة من مسائل المجتمع العراقي إلا ويمكن الالتفاف عليها ومراوغتها بسهولة عبر تقديم الرشوة، في ممارسة أقرها صدام علناً خلال التسعينيات. في لقطات تلفزيونية، كثيراً ما شجع مواطنيه على تقديم "الهدايا" إلى موظفي الحكومة الذين يساعدون في الأعمال المكتبية. وقد اعترف صدام بأن هؤلاء الموظفين كانوا يعانون أشد المعاناة

بسبب الأجور الهزيلة التي كانوا يحصلون عليها من الحكومة. وبرأيه كانت الهدايا إحدى الوسائل التي كانت تمكّن العراقيين من مساعدة بعضهم خلال العقوبات المفروضة من الأمم المتحدة.

وبعد تسربه من المدرسة، قضى نصير الصغير ثلاثة أعوام في الجيش العراقي، خدمة إلزامية لم يكن قادراً على التهرب منها لعجزه عن دفع المبالغ الكافية المطلوبة رشوة. عانى من الجوع لأن المقننات العسكرية الضئيلة لم تكن كافية وقد أمضى معظم وقته في إحدى القواعد معزولاً وهو يبكي. بعد التسريح عمل في محل لتنظيف الملابس حيث كان يتعرق ساعات طويلة في أعمال قذرة وخانقة مقابل 20 إلى 25 دولاراً في الشهر. وبعد الحرب سمع من عمه كريم عن حاجة إحدى الصحف إلى حاجب أو مراسل. والعم كريم كان يعمل سائقاً لدى **الواشنطن بوست**. وافق راجيف على استخدام نصير الصغير في اليوم التالي براتب يصل إلى نحو 100 دولار في الشهر.

بدأ نصير الصغير العمل في **البوست** معاوناً مطبخياً لمنذر، ذلك الرجل الذي كانت أنانيته تفوق مهاراته في إعداد الطعام وإن كان يُعد على نطاق واسع أحد أفضل "الشيفات" في بغداد. كان نصير خادم منذر المطيع. فيما كان الأخير يدخن ويقتل الوقت في الثرثرة مع السائقين، كان الأول يتولى فرم الخضار وتحريك الصلصة فوق النار الملتهبة في مطبخ كانت درجة الحرارة تتجاوز فيه المئة في الصيف. كان نصير الصغير يجلي الأواني والطناجر كما ينظف المائدة ويلم الأطباق بعد العشاء. لم يتذمر قط. أحد الحراس أمر نصيراً الصغير بترك فرشته التوأمة العارية التي كان ينام عليها، مهدداً إياه بممارسة اللواط معه إذا لم يذعن. كان التهديد كلاماً، غير أن نصيراً الصغير امتثل وأفسح للحارس مكاناً للنوم. في اليوم التالي طلب نصير الصغير اعتذاراً، غير أن ذلك لم يفده كثيراً. أنكر الحارس ما جرى، مع أن الجميع كانوا واثقين من استحالة كون نصير الصغير كاذباً. إن رجلاً كان يحضر يومياً قبل موعد الدوام بأربع ساعات لمد يد

المساعدة، رجلاً درج على فعل ما هو أكثر مما كان يُطلب منه، رجلاً عكف على تعلم اللغة الإنجليزية حتى ساعة متأخرة في الليل ليؤدي وظيفته على نحوٍ أفضل، كان إنساناً جديراً بالثقة. أما الحارس فكان قد ضُبط وهو يسرق المشروبات الكحولية غير مرة.

كان نصير يؤكد أن حياته تغيرت بعد الغزو الأمريكي. قال لي غير مرة: "لقد أصبحت حراً. إذا أغلق **البوست** مكتبه فباستطاعتي أن أشتري سيارة أجرة أعمل عليها. في ظل حكم صدام لم أكن أستطيع أن أفعل هذا، لأنه كان من المحتمل أن يدعونا إلى قتال جهة ما." كان يتحدث بالقناعة ذاتها التي سمعتها باستمرار من أفواه أعضاء آخرين في جهاز العاملين لدينا، قناعة الدفاع عن جريدتنا ومراسليها، الدفاع، في الحقيقة، عن حصتهم من الحلم الأمريكي كما كانوا يرونه. قال نصير: "أنا مستعد لبذل روحي في سبيل هذا المكتب. إذا ما شن المتمردون هجوماً على المكتب فسوف التحق بالحراس دفاعاً عنه." ليس لدي أي شك في أنه كان سيفعل.

جل العاملين عندنا لم يخبروا أحداً سوى أقرب أقربائهم بمكان عملهم. إنه بالغ الخطورة. فالعراقيون الذين يعملون لدى الشركات الأمريكية يحتلون صدر قائمة المتمردين الطويلة المتضمنة أسماء الكفرة. من المؤكد أن الجنود الأمريكيين كفار مئة بالمئة. ينطبق الحكم نفسه على المراسلين، المواطنين، والمتعاقدين الأمريكيين. العراقيون المنخرطون في العملية السياسية أو إدارة ما بعد الحرب كفرة. عناصر الشرطة والجيش العراقيين كفار لأنهم يدافعون عن تلك الإدارة. المواطنون الملتزمون بالقوانين كفار لأنهم يمتثلون لقوانين الغرباء. إذا أقدم أحدهم على تحميل المتمردين مسؤولية العنف في العراق فهو كافر شريف ولكنه يبقى كافراً. ذلك هو حقل الألغام الذي يتحرك فيه جهاز العاملين عندنا يومياً ذهاباً إلى بيوتهم وإياباً إلى المكتب. من هذه الناحية لم تتغير هواجس الحياة كثيراً بعد رحيل صدام. مازال العراقيون يخافون أصدقاءهم وجيرانهم. حتى الأقرباء قد لا

يكونون أحياناً أهلاً للثقة لأن مصدر الخوف الآن ليس رجلاً واحداً بل هو أي شخص.

حين بدأ سائقنا فلاح العمل في **البوست**، بادر إلى إطلاع جيرانه على طبيعة عمله. ألم يكونوا، آخر المطاف، يرونه ذاهباً وعائداً في الوقت نفسه تقريباً كل يوم بعد الحرب، رغم توقف سلاح الجو العراقي الذي كان فلاح يقدم إليه تقاريره عن الوجود. فلاح رجل جدي ومسلم ورع. درج على تشغيل محل سيارات إضافة إلى عمله دعماً لمرتبه العسكري. ثمة زملاء حثوه على قبول الرشى المصاحبة لخدمة السيارات العسكرية، غير أنه رفض. كان من شان ذلك أن يكون **حراماً**، كما قال لي، قاصداً خطيئة لا تغتفر. أي رجل قابل للرشوة لن يرى خيراً. تعامل مع وظيفته في **البوست** بالقدر نفسه من الاستقامة والصدق. مزعوج هو لاضطراره إلى الكذب على الناس حول مكان عمله. وأنا واثقة من ذلك حتى دون أن أسأله. ليس فلاح ممن يكذبون. غير أنه مجبر ولا خيار لديه. المتمردون موجودون في حيه البغدادي - أشرار على علاقات مع مزيد من الأشرار الأكثر سوءاً في الفلوجة. أبلغ جيرانه بأنه ترك العمل. لم يصدقوه. اضطر لأن يبقى ويتسكع حول البيت في الصباح مثل أي شخص ليس لديه مكان يذهب إليه. كان يكره ذلك أيضاً - الخداع الذي أبقاه بعيداً عن عمله. فقط زوجه، أولاده الثلاثة، وأمه يعرفون أنه مازال مستمراً في عمله مع **البوست**. كل صباح عند انطلاقه إلى العمل لا أحد من أفراد عائلة فلاح يكون واثقاً من أنه سيعود.

فلاح فخور بعمله في **البوست**، ولكن الأهم من ذلك هو أنه فخور بقدرته على إعالة أسرته. إن الراتب الشهري البالغ 1450 دولاراً الذي يحصل عليه من **البوست** يفوق مبلغ الـ 13 دولاراً في الشهر الذي كان يكسبه وهو برتبة مقدم في سلاح الجو بعد حصوله على الإجازة في العلوم العسكرية. في حزيران/يونيو 2003، كان أبو سيف قد أبلغه بأن **البوست** كانت بحاجة إلى سائق ليوم واحد من أجل مرافقة أحد المراسلين إلى كربلاء. الرجلان قريبان عبر زوجيهما. فزوج

أبي سيف هي خالة زوج فلاح رغم أن فارق السن بينهما أقل حتى من عشر سنوات. قبل فلاح بالسفر إلى كربلاء، سعيداً بالأجرة اليومية البالغة خمسين دولاراً. أُعجب به راجيف كثيراً فاستخدمه. حصل فلاح على خاتمي الموافقة الضروريين لأي استخدام في مكتب **البوست** ببغداد: أحدهما من راجيف والثاني من أبي سيف "**مصلّح**" راجيف ومستشاره الرئيسي على امتداد الأشهر الثمانية عشر التي تولى خلالها إدارة المكتب.

تطلب استيعابي لجملة الارتباطات المتشابكة والمربكة التي أوصلت كلاً من أعضاء جهاز العاملين عندنا إلى المكتب، جملة العلاقات القائمة بين هذا وذاك، أشهراً من الزمن. أبو سيف، طيار سابق في الخطوط الجوية العراقية، كان يعرف نصير رقم واحد، وهو معارض سابق لصدام، عمل مترجماً **للبوست** بعد الحرب. قام نصير رقم واحد بترشيح أبي سيف لوظيفة **مصلِّح**. وكلمة **مصلِّح** هذه تعني في قاموس المراسلين الأجانب الشخص الذي يحدد المواعيد ويحل المشكلات. إنه العنصر الحاسم بالنسبة إلى أي مهمة إعلامية. من الصعب إن لم يكن من المستحيل التحرك في أي بلد أجنبي دون **مصلِّح** كهذا. إنه أشبه بالدليل المغربي في طنجة، ذلك الذي يتبع الغريب فور نزوله من المركب ويظل يلح عليه إلى أن يمل فيوافق على الانقياد للدليل عبر الميناء مقابل مبلغ من المال. الأدلاء يعرفون المطعم الذي يقدم أفضل أنواع الكباب، أرخص محلات بيع الحاجيات الجلدية إضافة إلى تفاصيل التاريخ الكامن وراء كل من مشاهد المدينة. تستطيع أن تتجول وحدك مجاناً، ولكنك ستفعل ذلك كالعميان. إذا علقت في ورطة فمن سيخرجك منها؟ إنه **المصلِّح** بالطبع. ذلك هو ما يفعله المصلِّحون، وكان أبو سيف **المصلّح** الأول والأخير، الوغد المعترف بأنه وغد والذي كان يعتقد جازماً بأن أي مشكلة في الحياة قابلة للحل مقابل رشوة بسيطة. في الحقيقة كان أبو سيف أفضل مروجي مهارته، غير أنه كان ينجح باستمرار. كان أبو سيف مولعاً بتكرار

عبارة "أنا أعرف شعبي" وهو يشرح سبب ضرورة العمل بنصيحته، سبب كوننا نحن على خطأ وكونه هو على صواب.

كانت صورة أمريكا في ذاكرة أبي سيف متجمدة عند العام 1975 حين وصل إليها، وهو في الثامنة عشرة من العمر، للالتحاق بمدرسة الطيران في تولسا الأوكلاهومية. من حكاية حياة أبي سيف الموسعة قليلاً التماساً لبضع ربتات على الظهر، تبرز إحدى صور البطل: لم يكن أبو سيف إلا زير نساء كامل الأوصاف، ناعم الكلام. تمثلت عبارته المفضلة بـ "إذا كان المرء سيتعرض للاغتصاب، فإن بمقدوره أن يستمتع بما يحصل أيضاً." تحولت العبارة إلى شعاره المفضل بالنسبة إلى عراق ما بعد الحرب في ظل الاحتلال الأمريكي.

ظلت الخطوط الجوية العراقية متوقفة عن الطيران مدة سنة ونصف بعد الحرب. ثم ما لبثت أن استأنفت العمل ولكن الرواتب كانت ضئيلة مقارنة بالمرتب الشهري البالغ 2000 دولار تقريباً لأبي سيف في **البوست** التي كانت أيضاً تستخدم ابنه سائقاً. ومع أن أبا سيف كان بوسعه أن يعود إلى التحليق في السماء، فإنه كان محكوماً بالذهاب إلى خطوط جوية مفلسة ومازالت عاجزة عن الطيران دولياً.

حين عُرض عليه العمل في **البوست** للمرة الأولى، وتوجس أبو سيف خوفاً من ألا تناسبه حياة الصحافة، غير أنه ما لبث، لدى انخراطه في عملية مطاردة القصص والأخبار في الشوارع البغدادية متجنباً الطلقات والسيارات المفخخة، أن تذكر أن الخطوط الجوية العراقية كانت قد علمته فنون التحاور والتعامل مع المختطفين. سرعان ما انجذب إلى أخطر المهمات. راح يتباهى قائلاً: "لقد أصبحت الأفضل في هذا. يمكنني الذهاب إلى هذه الأمكنة والعودة منها سالماً."

لعل إحدى أبرز الصفات التي كان العاملون في مكتبنا البغدادي يتحلون بها هي الولاء الشرس - لا **للبوست** فقط بل ولقصة العراق - تبنوا "مهمتنا" المتمثلة بالوصول إلى الحقيقة. في نيسان/أبريل 2003، كانت مهمة أبي سيف الإخبارية الأولى في معرض بغداد حيث كان صدام قد خبأ كميات من مواد الأرز، السكر، الشاي، وزيت الطعام. كان اللصوص قد اكتشفوا مخابئ الخيرات، وراح المئات منهم يسطون على كل شيء. كانت تلك مهمة بالغة الخطورة بالنسبة إلى كل من أبي سيف وراجيف، وقد تعين على الأول، لعدم وجود أي شرطة أو قانون في بحر من اللصوص، أن يتولى وظيفتي الترجمة والحماية المتزامنتين للثاني. من تلك اللحظة أحس أبو سيف بنوع من المسؤولية الراسخة. كان يقول فيما بعد متذكراً تلك المناسبات: "كان تقاسم تلك اللحظات مع مراسلين عظماء عاكفين على كتابة تاريخنا شرفاً. وقد تعين علي أيضاً أن ألازمهم مبدياً أشد الحرص على ألا يغيبوا عن عيوني حماية لهم من أي مكروه كان من شأنه أن يصيبهم."

أقدم جميع العاملين عندنا على تعريض أنفسهم لأخطار مماثلة. انخرطوا بسرعة في أبرشية مسلكنا القائم على اقتحام الأعاصير والزوابع؛ مع بقاء تلك الأعاصير والزوابع حرباً مزلزلة لبلدهم المأهول بالأصدقاء والأهل والأقارب. سائقون متبطلون عند مداخل أبنية مستهدفة، بانتظار مراسلين خارجين بسرعة. إنهم يقلوننا إلى قلب الفوضى، إلى مشاهد السيارات المفخخة المتفجرة حيث يتم تعطيل القنابل الإضافية بعد التفجير أحياناً. إنهم حماتنا وأبطالنا.

كان فلاح هو الذي أقل راجيف إلى فندق بغداد في 12 تشرين الأول/أكتوبر 2003، ليتمكن الأخير من مقابلة أحد أعضاء مجلس الحكم العراقي الموقت، تلك الهيئة الانتقالية التي شكلتها سلطة قوات التحالف. كان المجلس قد اتخذ مقراً له في بغداد. كان متعاقدون أمنيون عاملون بالأجر لدى الولايات المتحدة من مؤسسة دين كورب قد صفَّحوا النوافذ قبل بضعة أيام لحماية المبنى من التفجيرات، في تدبير احترازي متخذ بعد حادث نسف مقر الأمم المتحدة. كان

فلاح على مسافة نحو 100 متر عن الفندق عندما انفجرت القنبلة. اندفع فلاح بسرعة. كان رأسه ينزف جراء إصابته بشظية معدنية طارت من التفجير. ثمة قذائف صغيرة من شظايا قاتلة انهمرت على الجميع في الممر. هرع فلاح نحو البناء دافعاً المارة للعثور على راجيف. التمس المساعدة من أحد حراس الأمن. أمر الرجل فلاحاً بالابتعاد عن المذبحة والركام. وفي هذه الأثناء، كان راجيف داخل المبنى غارقاً في بحر من الفزع. كان ظهره مستنداً إلى إحدى النوافذ لدى حصول الانفجار الذي قذفه هو ومن كان يقابله أرضاً. متعرضة للنسف جراء الانفجار تمزقت النافذة أشلاء ولكنها لم تتسحق مما أنقذ حياة راجيف. بعد الانفجار اندفع عدد من حراس الأمن إلى الغرفة وغطوا بأجسادهم كلاً من راجيف وعضو المجلس حماية لهما من أي انفجار آخر محتمل. بعد انقشاع الغبار قاما وتوجها إلى الممر. راح راجيف ينادي فلاحاً عبر اللاسلكي. لدى إخفاقه في الوصول إلى فلاح حول الموجات وبدأ يستنفر المراسلين الآخرين الموصولين بالشبكة نفسها داعياً إياهم إلى البحث عن فلاح. مخالفاً نصائح الحراس الأمنيين، اندفع راجيف بسرعة إلى البهو في الطبقة الدنيا حيث كان الجرحى يُعالجون. ثمانية أشخاص ماتوا في التفجير. شق راجيف طريقه بين أشلاء الأجساد البشرية والقطع المعدنية الملوية. سمع دوي إطلاق نار خارج الفندق. رأى مراسلاً آخر من معارفه على الطرف الآخر من المدخل المحصن وناداه طلباً للاطمئنان إلى وضع فلاح. شعر راجيف بالراحة حين علم أن فلاحاً لم يصب إلا بجرح في جبينه، غير أن لقاء الطرفين كان سيتطلب انقضاء خمس وعشرين دقيقة أخرى، حين كانا سيشبكان أيديهما احتفالاً بالنجاة المشتركة.

ما من يوم مع العاملين عندنا إلا وبدا يوم نجاة مشتركة. ما أكثر ما كنت أشعر بالقلق على سلامتهم لدى ذهابهم إلى منازلهم ليلاً، متخيلة جملة ألاعيب مطاردة القطط للفئران التي كانوا يمارسونها لمراوغة المتمردين تجنباً للقتل! ما أكثر ما كنت أشعر بالقلق إزاء الحيوات المزدوجة التي كان يتعين عليهم أن

يعيشوها، إزاء جملة الأسرار التي كانوا مضطرين لكتمانها عن أقرب الأصدقاء! مواجهة الموت على نحوٍ مكشوف أمر. أما مواجهته انفرادياً فأمر آخر تماماً. أصبحتُ الأختَ التي يستطيعون أن يثقوا بها. أصبحتُ البنت التي يتعين عليهم حمايتها. أصبحت الصديقة التي يمكنهم أن يأمنوا جانبها. وهم أيضاً ما لبثوا أن أصبحوا أهلي، أعضاء أسرتي المقربين، المباشرين، الحميمين، القادرين على تفهم معنى الحياة اليومية في إحدى ساحات الحرب.

كانت هُدى المترجمة الوحيدة في مكتبنا عندما جئت إلى العراق في أيار/مايو. تكبرني بعام واحد، حكيمة، قوية، وبعيدة كل البعد عن صورة المرأة المسلمة المتزمتة التي كنت أحملها في مخيلتي الحمقاء. في ذلك الوقت كانت تخفي شعرها بأغطية حريرية جميلة محكمة، مبرزة وجهاً ملائكياً ذا بشرة كالحرير. هدى وأنا أصبحنا صديقتين حميمتين. وجودها كان يساعد على تدوير زوايا المكتب وضبط سلوك الرجال الذكوري. كذلك كانت هدى مؤهلة للوصول إلى قطاعات من المجتمع العراقي كانت بعيدة عن متناول المترجمين الذكور. فنساء أي بيت كن أكثر استعداداً لدعوتي إلى الدخول والتحدث بصراحة عن حيواتهن في غياب العنصر الذكوري. لافَّتَيْن رأسينا بغطائين كنا، هدى وأنا، ـ في البداية على الأقل ـ قادرتين على التجول في الشوارع سوية، على التسوق ونحن نتهامس بالإنجليزية. كان حديثنا المكبوت في حضور أصحاب المحلات الذكور يبدو طبيعياً تماماً بل وباعثاً على الاحترام.

في الوقت نفسه، لم يبادر إلا القليل من الرجال إلى خذلان هدى المسترجلة عند مطالبتها بجواب على سؤالها. كانت جريئة مسلحة بمرفقين حادين يمكنانها من اقتحام أي موقف أو وضع. كانت صديقتي الأقرب، أختاً لي ولجني، لأن انتسابها إلي ينسبها إلى توأمتي آلياً. أردت أن أطلع جني على حقيقة عائلتي العراقية وأجعلها تعرفها بمقدار ما أعرفها أنا. شعرت بحاجة إلى جعلهم يعرفونها. كان ذلك يساعد على الجسر بين نصفي حياتي. الواحد بعد الآخر،

دعوت أفراد جهاز العاملين العراقيين إلى غرفتي البغدادية وعرضت عليهم جملة الصور الفوتوغرافية التي زينت بها أحد الجدران، ألبوماً لصور أهلي وأصدقائي هناك في أمريكا. يوم جاء لاستعراض جدار الصور قلت لمدير مكتبنا عمر: "هاتان هما جدتاي. أفتقدهما كثيراً." رمقني عمر الذي كان آنذاك في السادسة والعشرين من العمر نظرة حنان ولطف وقال: "سأكون جدتك في العراق."

انهار عالمي حين تركت هدى العمل في **البوست** في شهر تموز/يوليو للعمل لدى النايت رِدَّر، وكالة أنباء أمريكية أخرى في العراق، إلا أنني دعمت انتقالها إلى وظيفة أفضل. كانت ستعمل لدى مراسلتي المفضلة في العراق، رئيسة مكتب النايت ردر، هناء علام. تصادمنا، هناء وأنا، صدفة للمرة الأولى في حزيران/يونيو بسجن أبو غريب. سبق لها أن كانت المتطوعة في **الواشنطن بوست** التي تقاسمت الغرفة مع إحدى أقرب صديقاتي في البوست، جامي ستوكول. لم أدر حول الأرض باعثة بالتقارير من أمكنة العالم الحساسة، مثل عدد كبير من المراسلين الخارجيين الموجودين الآن في العراق. فهؤلاء المراسلون كانوا يعرفون بعضهم من أفغانستان، أفريقيا، روسيا، البلقان. كانت هناء صلتي الوحيدة مع مكان مألوف ومعارف مشتركين. حتى بعد انتقال هدى إلى النايت ردر واصلنا نحن الثلاثة لقاءاتنا، وكنت أعوّل على رفقتهما حتى دون أي لقاء خلال أسابيع. أبديت حرصاً على عدم الإكثار من الكلام مع هدى عمن حلت محلها، أي عن لمى، التي أقلعت عن كل أشكال أغطية الرأس ودأبت على كتابة قصائد الغزل للجنود الأمريكيين الذين كانت تلتقيهم. بالنسبة إلى لمى، كنت أشبه بنائبة أخت أكبر، أخت لم يسبق لها أن كانت موجودة. مع أن لغتها الإنجليزية كانت بالغة السوء فإنها ظلت باقة أقحوان، امرأة جميلة، مفعمة بالحياة، طافحة مرحاً، نفخت الروح في المكتب. ظلت تتشاجر مع زميليها المترجمين البالغين العشرين ونيفاً من العمر. عمر وبسام. كثيراً ما تعين علينا أن ننتشلها من استغراقها الموسيقي ـ من براثن السماعات الموصولة مع قرص التقليعة الأمريكية

الأخيرة المدمج ـ لترجمة أي تقرير إخباري طارئ. غير أنها كانت سريعة التعلم، استثنائية الطموح، لا تعرف معنى الخوف. كانت تعشق البقاء مع الجنود الأمريكيين. كانت تعدّهم بطاقة سفرها إلى عالم أفضل ـ بطاقة سفر إلى أمريكا مع ابنتها الصغيرة التي كانت تربيها بالتعاون مع أمها بعد ضبط والد البنت وهو يغش. تركت لمى زوجها في المكان واللحظة، مع أنها كانت حامل، وعلى الرغم من أن تحولها إلى امرأة مطلقة في بغداد كان من شأنه أن يجعلها شاذة اجتماعياً، منبوذة. كانت لمى تعيش وفقاً لشريعتها الخاصة.

قام عمر بتنبيه لمى إلى ضرورة التحاقها بالعمل مع حلول الساعة التاسعة كل صباح وإلى عدم جواز التأخر. في يومها الأول في العمل سُدت شوارع بغداد بأحد أسوأ أوضاع الازدحام المروري التي سبق للعاصمة العراقية أن شهدتها. كان عمر عالقاً في ذلك الازدحام المروري حين التفت ليرى لمى في سيارتها الفاخرة من طراز بي. إم. في. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين، ولم تكن السيارات تتزحزح. حين نظر إليها للمرة الثانية، رأى لمى وقد قفزت بسيارتها إلى الرصيف. حتى وصلت إلى النهاية حيث كان الرصيف عالياً قليلاً. سارع بضعة رجال بعد أن تعاطفوا مع هذه الفتاة المرتبكة إلى القفز من سيارتهم ومراكمة كومة من الحجارة في الطريق لتمكينها من العودة إلى رتل سيارات الشارع. حين وصل عمر إلى المكتب أخيراً، كانت لمى هناك منذ بعض الوقت. سألها عن سبب انتقالها بالسيارة إلى الرصيف، فردت: "ألم تقل لي إن علي ألا أتأخر؟!"

بقي العاملون في مكتبنا، قصصُ معاناتهم ونجاتهم، جملةُ الآمال التي كانت تمكنهم من الاستمرار ببساطة، مصدر إلهام بالنسبة إلي. كانوا العراق، لا مجرد نماذج ممثلة للعراق، بل العراق بالذات، كانوا الناس الذين شكلت حيواتهم الممزقة والمعاد ترقيعها ساحة قتال بلدهم. أرى وأنا عاكفة على الكتابة، أن من الأسهل على المرء أن يصف أي مكان، أي صخرة، أي جبل، أي بحر. أما الناس فأكثر

تعقيداً. ما سبيل اقتناص جوهر شخص معين، كيان محدد، من خلال كلمة واحدة؟ تستطيع أن تؤنسن مشهداً ولكن كيف تؤنسن كائناً بشرياً؟ بوصفنا صحفيين ننعم بترف النظر إلى الناس كما هم، أمامنا، جرحى، مكسورين، أصحاء، أخياراً، أشراراً. شعرت كما لو كنت أعرف العراق من خلال جهاز العاملين في مكتبنا. وفروا لي علبة بلورية مكنتني من مراقبة البلاد، تقاليدها، ديانتها، خطاياها في الماضي، وآمالها المعقودة على المستقبل. عموماً لم يكن الجنود الأمريكيين متوفرين على الفرصة ذاتها من حيث التفاعل مع عراقيين عاديين، مع أناس بعيدين عن السعي إلى قتلهم. أكثر الأحيان كانوا يتواصلون عبر السياج بالبنادق. كثيراً ما تساءلت عن مدى الاختلاف الممكن حصوله في العلاقة بين الجيش الأمريكي والمدنيين العراقيين لو كان الجنود قد عرفوا العراق الذي عرفته أنا ـ من خلال أعضاء جهاز العاملين، عبر الناس الذي التقيتهم في الشوارع. من المؤكد دون أدنى شك أن الجنود لا يثقون بالمدنيين والعكس صحيح. في الحرب، أتفهم الحاجة إلى فك الارتباط مع الوجه الإنساني للعدو. ولكن ما الذي يحصل حين تفك ارتباطك بالوجه الإنساني للشخص الذي تحاول حمايته؟ الجميع يتجولون إلى العدو، والفوز بالسلم يغدو مستحيلاً.

بعد وصولي إلى بغداد بأسبوعين وجدتني في السيارة مع عمر الثاني القابع وراء مقود السيارة المصفحة مخترقاً حركة السير البغدادية المزدحمة متعرجاً ذات اليمين وذات الشمال. كنا منطلقين بسرعة لنصل إلى ثكنة النصر، قاعدة الجيش القريبة من مطار بغداد الدولي، لأتمكن من مقابلة جنرال في الجيش حول المعتقلين. كنا نطير بالسيارة بسرعة وصلت إلى نحو مئة ميل في الساعة. كان الشارع المعبد الممتد من بغداد إلى المطار الأكثر خطراً في العراق. تكرر استهداف المتمردين له بقذائفهم. تلوى عمر متجنباً حفر الانفجارات السابقة. بغتة مرت قافلة عسكرية أمريكية بصخب، رتل من سيارات الهمفي العامرة برماة رابضين في أبراجهم، ورشاشات عيار الخمسين ماشطة للشارع. تعامل عمر مع

الكابح وانسحب إلى يمين القافلة. قلص سرعتنا إلى ثلاثين ميلاً في الساعة وراح يتحايل على منابع الخطر. خلف المقود لم يكن عمر إلا وجهاً عراقياً آخر، انتحارياً محتملاً، العدو ذاته. في الجزء من الثانية الذي يمكن أن يستغرقه توهم أحد المارة الرماة، لن تتاح لعمر فرصة شرح حكاية أنه مع الاحتلال الأمريكي، قصة رغبته في بقاء الجنود لحفظ السلام ومنع الحرب الأهلية.

كان عمر الثاني ضابطاً برتبة مقدم في القوات الجوية العراقية. كان يقود مقاتلات نفاثة إلى أن أجبرته الحكومة على الاستقالة في 2000، وهو في الثانية والثلاثين من العمر، لأن له عدداً كبيراً من الأقارب خارج العراق. أدى الأمر إلى جعله مصدر خطر أمني، بنظر الحكومة. وبعد تقاعده الإجباري من القوات الجوية قام عمر الثاني بافتتاح محل في بغداد لبيع الحقائب والأحذية النسائية. كذلك بدأ يخطط للهرب من العراق. ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001. وبعد الهجمات الإرهابية على أمريكا "لم يعد العراقيون والعرب عموماً يلقون الترحيب في أي من البلدان الأجنبية" كما اكتشف عمر الثاني. لم يبق أمامه أي خيار سوى البقاء في العراق. بعد الحرب التي قادتها الولايات المتحدة في 2003، جاء عمر الثاني إلى فندق الحمراء البغدادي الذي كان يعج بالصحفيين الأجانب الذين كان عدد كبير منهم مستقلين أو مراسلي وكالات أو منظمات إعلامية صغيرة. طلب راجيف الذي كان قد أسس مكتباً **للبوست** في الحمراء لدى وصوله إلى بغداد بعد بضعة أسابيع من بدء الغزو من عامل مكتب الاستقبال أن يرشده إلى سائق، فوجد عمر الثاني نفسه مستخدماً لدى **الواشنطن بوست**. رغم انقضاء ما يزيد على عامين على الاستخدام لا يزال أبو عمر الثاني وأشقاؤه يظنون أنه سائق يعمل مع صحفيين مستقلين، يلتقط زبائنه حين يستطيع. زوجه هي الوحيدة التي تعلم أنه يعمل لدى **البوست**.

قبل الحرب لم يكن أحد من العراقيين في جهاز العاملين عندنا متوفراً على خبرة ذات شأن مع صحفيين، ولاسيما صحفيين أجانب. في ظل صدام كان العراقيون معرضين للعقاب إذا ما تحدثوا مع أجانب، وكانت الصحافة الأجنبية خاضعة لرقابة صارمة. من كان يسمح له بدخول البلد من الصحفيين كان يخصص له مرافق يتولى التحكم بمن يمكنه مقابلتهم. أدى سقوط بغداد إلى تمكين أبسط العراقيين من التواصل مع الأجانب والغرباء بحرية للمرة الأولى في حياتهم. كان مدير المكتب عمر في الخامسة والعشرين من العمر عند سقوط بغداد. ومع أنه كان يحمل إجازة في الأدب الإنجليزي من إحدى الكليات الخاصة في بغداد، لم تتح له بعد التخرج في 2002 فرصة التحدث باللغة التي درسها. تقدم بطلب انتساب إلى معهد دراسات عليا آملاً في الحصول على شهادة الماجستير في اللغة الإنجليزية، غير أن طلبه قوبل بالرفض. كان اسم العائلة مدرجاً على القائمة السوداء في عهد صدام الذي أصر على رفض طباعة اللقب حتى على جوازات السفر. كان أفراد العائلة مضطرين بدلاً من ذلك استخدام انتمائهم العشائري أو القبلي، الأمر الذي شكل إهانة بالنسبة إلى عائلة نخبوية مثقفة: والد عمر كاتب مشهور في العراق، وكان عمه سياسياً منفياً هرب من العراق في 1979. كذلك بقي والد عمر منفياً عدداً من العقود، ثم ما لبث أن عاد ليتزوج امرأة ذات أصول كردية منحت عمر شعر أجفانه الأسود الطويل، أنفه الحاد، وبشرته الشاحبة. في عهد صدام ظلت أرقام هواتف أبناء العشيرة خاضعة للمراقبة كما بقيت بيوت الأهل والأقرباء تحت الإشراف المستمر. قبل الحرب في 2003 ببضعة أشهر طلب والد عمر من ابنه أن يبعد كومة من الصحف عن البيت ويحرقها أو يدفنها. كانت العائلة قد نُبهت إلى أن بعض ضباط المخابرات الصدامية كانوا موشكين على اقتحام البيت.

عاجزاً عن الالتحاق بمعهد الدراسات العليا، تعين على عمر انتظار بدء خدمته العسكرية الإلزامية البالغة ثمانية عشر شهراً في الثاني من كانون

الثاني/يناير 2003. دفع مبلغ ألف دولار لتجنب الذهاب إلى معسكر التدريب، وتلك طريقة مشروعة تمكن النخبة الاقتصادية العراقية من تجنب الخدمة العسكرية. الشباب الذين يدفعون الثمن كانوا يُلزمون فقط بخدمة ثلاثة أشهر تحت اسم، "خدمة علم" تعبيراً عن الاحترام للعلَم. قام عمر بدفع حتى أكثر من ذلك على شكل رشاوى، غير أن معاملاته الورقية تأخرت مدة ثلاثة أشهر. خلال الفترة، كانت خدمته في ثلاثة أمكنة مختلفة؛ كان مضطراً لمغادرة بيته في بغداد في الساعة الثانية والنصف صباحاً حتى يتمكن من الوصول إلى المعسكر قبل التفقد، ولم يكن يعود إلا مع حلول الساعة الثامنة مساء. في آذار/مارس 2003، مع صيرورة الحرب مع الولايات المتحدة مؤكدة أكثر، نُقل عمر إلى الشمال، إلى معسكر في إحدى القرى الكردية التي احتلها الجيش العراقي عام 1982. وقرية قَرَه ـ إنجر (التينة السوداء) التي أعاد الجيش تسميتها بـ "ربيع"، كانت على مسافة سبعة أميال عن مدينة كركوك في الشمال العراقي. في الأيام المفضية إلى الحرب، كان الجنود العراقيون الذين يحاولون الاستسلام للسكان المدنيين الأكراد يُعْدمون رمياً بالرصاص من قبل رفاقهم العراقيين. لم يكن عمر ملزماً بحضور التفقد كل يوم؛ كان يذهب إلى هناك مرة واحدة في الأسبوع ليدفع الرشوة. وفقاً للقانون العراقي لن يعود عمر، بعد اندلاع الحرب، قادراً على شراء التحرر من الخدمة العسكرية بالرشوة. كان سيتعين عليه، بدلاً من ذلك، أن يبقى ويقاتل. جرى تلقينه مع أخويه بأن القتال في صف صدام عار. كان أبوه يقول له: "نحن كتاب، فنانون، أطباء، مهندسون، وسياسيون. ولكننا لسنا منافقين على الإطلاق."

في الرابع عشر من آذار/مارس 2003، التحق عمر بالقاعدة العسكرية العراقية في الشمال. أخذ معه 1500 دولار ودفع 1000 دولار إلى البنك في كركوك. كان قد أنهى أشهره الثلاثة وأراد أن يحصل على التسريح. أخذ المعاملة إلى القاعدة وطلب من أحد القادة تعجيل العملية حتى يتمكن من العودة إلى

بغداد في اليوم نفسه. عند هذا المنعطف، كان عمر واثقاً من أن "أشقاءه" الأمريكيين كانوا قادمين في أي لحظة. طلب منه القائد أن يبقى إلى صباح اليوم التالي. أمضى الليل دون نوم. في صباح اليوم التالي طالب القائد ثانية بتوقيع أوراقه وختمها. زعم الأخير أن الخاتم الصحيح لم يكن بحوزته، وأجبر عمر على البقاء ليلة أخرى في القاعدة. مرة أخرى لم ينم. وفي صباح السادس عشر من آذار/مارس تبلغ عمر من القائد أن جميع الجنود كان سيتعين عليهم البقاء في القواعد استعداداً للقتال. لم يكن ليُسمح له بالمغادرة. بادر عمر إلى إغراء القائد بمبلغ الـ 500 دولار الباقي معه. ضحك القائد ساخراً: "ما الذي سأفعله بدولاراتك الـ 500؟ إننا سنموت في جميع الأحوال.""

قرر عمر وضع حد لما أطلق عليها اسم "اللعبة الغبية." ظل ممتنعاً عن الأكل والشرب خلال الليالي الثلاث والأيام الأربعة التي قضاها في القاعدة. لم يذهب إلى دورة المياه ولم ينم. وفي صباح اليوم التالي غادر القاعدة في الساعة السادسة والنصف صباحاً متوجهاً إلى بغداد، متدبراً أمر عبور نقاط التفتيش المستحدثة لتوقيف الجنود الفارين بطريقة أو أخرى. نجح في الوصول إلى بغداد سالماً، وفي التاسع عشر من آذار/مارس، قام الرئيس بوش بإعلان بدء الحرب في العراق. بدأت المقاتلات الأمريكية تمطر العاصمة بوابل من القنابل.

أمضى عمر أيام الحرب في بيته. لم يكن يستطيع الخروج حتى إلى عتبة الباب خوفاً من قيام مخبري صدام بتسليمه إلى الشرطة. كانت عقوبة الفرار من الجيش هي الإعدام رمياً بالرصاص أمام بيت الجندي الفار. ليلاً، كان يتجول بالسيارة في شوارع بغداد المهجورة لتفقد الأمكنة المقصوفة والوقوف على مدى الدمار الحاصل، ثم يعود إلى البيت ويصعد إلى الأسطوح لمتابعة عمليات تبادل النيران بين العراقيين والقوات الأمريكية.

بعد سقوط بغداد سمع عمر أن صحفيين في فندقي فلسطين والشيراتون كانوا يمكّنون العراقيين من استخدام هواتفهم الفضائية للاتصال بالعالم الخارجي، وهو أمر لم يكن متاحاً لأكثرية المواطنين على امتداد ما يزيد على عقد كامل من الزمن؛ ففي ظل حكم صدام كانت الهواتف الخلوية محظورة. خلال إحدى مهماته الأولى مترجماً لدى **البوست** رافق أبو سيف مراسلاً يدعى بيتر فِنْ إلى سجن أبو غريب، حيث كانت مقبرة جماعية قد اكتُشفت: كان الضحايا قد قتلوا لاستخدامهم هواتف خليوية في أثناء الحرب.

في السابع عشر من آذار/مارس ذهب عمر إلى (فندق) فلسطين ليحاول الاتصال بأقربائه في لندن فيخبرهم بنجاة العائلة من الحرب، غير أنه لم يوفق في الاهتداء إلى هاتف. وفيما كان يهم بالمغادرة رأى مراسلة تحاول إجراء مقابلة مع مواطنين عراقيين. لم تكن المراسلة تتكلم العربية كما لم يكن المواطنون يعرفون ما يكفي من الإنجليزية لتحقيق التواصل. تطوع عمر للترجمة. غمرته النشوة إذ وجد نفسه متحدثاً مع أجنبية ويمارس اللغة التي كان قد درسها. ترجم لمدة زادت على ساعة ونصف. كانت الشمس موشكة على الغروب، ولم يكن عمر يريد أن يُضبط مخالفاً قرار خطر التجول المفروض من الجيش الأمريكي. أبلغ المراسلة برغبته في المغادرة. طلبت منه أن ينتظر دقيقة واحدة وراحت تبحث عن أحد الزملاء. عادت بعد بضع دقائق مع راجيف الذي سأله عما إذا كان راغباً في العمل لدى **الواشنطن بوست**.

"لا، شكراً. جئت فقط لأجري اتصالاً هاتفياً."

"إذا غيرت رأيك، تعال إلى فندق الحمراء غداً في التاسعة صباحاً. أنا راجيف تشاندراسيكاران، رئيس المكتب."

عاد عمر إلى البيت وتحدث عن العرض مع أخويه وأبيه الذي انتشى فرحاً. فقد كان دائم الرغبة في أن يصبح ابنه الأوسط صحفياً. في اليوم التالي جاء

عمر إلى الحمراء وانطلق بصحبة راجيف إلى مسقط رأس صدام، تكريت. وبعد عامين قام عمر برحلة أخرى، هذه المرة على متن عبارة سياحية خضت شواطئ جزيرة إيليس في طريقها إلى تمثال الحرية. وقف عمر على حافة المركب غير آبه برشات الماء الآتية من نهر هدسن. كان قد حلم بهذه اللحظة حياته كلها. تعين عليه أن يلامس التمثال. مع أن المراهقين والمراهقات الأمريكيين على ظهر القارب كانوا مشغولين بالمصارعة، ومجموعة من تلاميذ المدارس الصغار منقضين على وجباتهم الغذائية، فإن عمر بقي حيث هو دون حركة. قبل يوم كان أخوه قد اتصل هاتفياً من بغداد. كان المتمردون في الحي يتحدثون مخمنين أن عمر كان في الولايات المتحدة. لا أحد سوى الخونة، الجواسيس، الكفرة الذين يعملون لمصلحة الأمريكيين كان يذهب إلى الولايات المتحدة. بقي تهديد المتمردين مضمراً غير أن عمر وأهله كانوا يعرفون ما كان سيحصل إذا ما تم اكتشاف عمله مع الأمريكيين. نعم الأمريكيين الذين كانوا قد دعوه إلى زيارة الولايات المتحدة. بات هو وأهله في خطر بالغ الجدية. إلا أن عمر قاوم إلحاح أفراد عائلته مطالبينه بمحاولة البقاء في الولايات المتحدة أو التخلي عن وظيفته. رد عليهم مرة بعد أخرى قائلاً: "سأموت إذا توقفت عن العمل. أما إذا واصلت العمل فقد أُقتل، ولكن ثمة فرصة لأن أعيش. أفضل أن أموت تاركاً ورائي شيئاً يذكرني الناس به. لا أريد أن أكون شخصاً جاء إلى هذه الحياة ورحل عنها دون أن يلاحظ وجوده أحد."

☆ ☆ ☆

أكتب لعمر: "أرجوك يا أخي. زوجك مقطوعة. أين هو السائق؟"

بعد أن أمضت أختي عدداً من الأشهر في العراق لم تعد مثل هذه اللحظات تبدو سوريالية: تبادر أختي. وهي في مكان ما من العراق، الهاتف الخليوي مقطوع وغير قادرة على الاتصال بسائقها. إلى الاتصال بي في

الولايات المتحدة عبر أحد الأقمار الصناعية طالبة مني أن أبعث برسالة إلكترونية إلى عمر طالبة منه إيفاد سائق. أرسل الرسالة الإلكترونية إلى عمر؛ غير أنني لا أسمع رداً. جاكي تتصل بي ثانية وتتوسل: "أرجوك أن تمسكي به. أنا على نار هنا، في ورطة حقيقية." أستطيع أن أؤكد أنها شديدة الانفعال، أنا، أيضاً، أصبحت شديدة القلق. أكرر الاتصال مع عمر، المترجم الذي اختار أختي زوجاً رابعة له، مزاحاً. ذلك يجعلني ابنة حميه. ابنة عم متزايدة الغضب. في البريد الإلكتروني الأخير، أكون صريحة وأقول على نحوٍ مباشر: "أرسل أحدهم لجلبها الآن قبل أن تُقتل." أخيراً أتلقى الرد: "اطمئني يا أخية! السائق على الطريق."

أختي وأنا درجنا، دائماً، على تقاسم أقرب أصدقائنا. حتى زوجي كان يعلم حين تزوجني أنه كان، بطريقةٍ ما، يتزوج أختي أيضاً. أحببته لأنه من النوع الذي يحترم طبيعة التوائم ويتفهمها من بين الرجال. كان يقول: "وما العيب في ذلك. إنه نوع من الدعم في حال حصول شيء لك." وكلما أصبحت أختي أكثر قرباً من عائلتها العراقية، زاد العاملون معها، من نساء ورجال، من حمايتهم لها، ازددت أنا أيضاً انخراطاً في تلك العائلة.

كل ليلة ولدي ابن العامين والنصف ينهي صلواته بالدعوة لأعضاء جهاز العاملين قائلاً بخشوع: "رب احفظ أبا سيف، عمر، وبساماً من أي مكروه في العراق!" أسماء هؤلاء الرجال كانت كلماته العربية الأولى. لدى متابعة الصور على شاشة الشبكة كان يستطيع التحدث معهم، يلوح لهم تحية، يعرض عليهم ألعابه. وبالمقابل كانوا يحركون كمبيوتراتهم بين الغرف في مكتبهم البغدادي، في البيت الذي كانت أختي تعيش وتعمل فيه لإطلاعه على فضائهم. كان ابني يظن أنهم يعيشون في كمبيوتري. لدى سؤاله عن موقع العراق، كان يشير إلى كمبيوتري المحمول.

في عيد الميلاد أرسلت لنا جاكي شريط فيديو لاحتفالهم ببغداد . شريط فيديو صامت مصور بكاميرتها الرقمية. كانت نجمة الفلم، محاطة برجال عراقيين، صيغتها الذهبية الميلادية متدلية من أذنيها ورقبتها، العاملون يرقصون من حولها. تذكرت حفل زفاف صديقينا صوفيا وفرانك. عائلة صوفيا إيرانية، وحفل الاستقبال حضره عشرات من الأقارب الإيرانيين الشباب الذين ازدحمت حلبة الرقص بهم، فيما كانت أجسادهم تتماوج مع إيقاع الموسيقا الفارسية. زوجي وأنا شعرنا كما لو كنا اثنين من ثيران قصة معرض الأواني الخزفية المعروفة، فبقينا نراقب ونحن في مكاننا، مسحورين بجمال حركاتهم. فيما أذرعتهم السمراء متعالية في الهواء وأصابعهم تدغدغ الهواء مثل أوتار "الهارب".

راقبت أختي وهي تلف الغرفة مع عمر، بسام، والآخرين، ناسية قذائف المورتار وطلقات الرشاشات. لم يسبق لها أن بدت بمثل هذه الحيوية والنشاط. ومع أنني لم أكن قادرة على سماع الموسيقا، فقد أحسست بها، وأنا أتابع من وراء الكواليس، متشوقة للانضمام إلى الرقص.

☆ ☆ ☆